الفصل الثالث
إبـراهيم وأربـعة من الطير

النفس البشرية دائما تبحث عن اليقين الثابت القائم الملموس، ألا وهو عين اليقين ؛ وذلك لطبيعة جبلتها المادية ، ولكن لماذا طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيا الموتى ؟ هل هو شك فى اطمئنان قلبه ؟ هل هو شك في الإيمان ؟ حاشا لله ، فمن اصطفاه الله لرسالته لن يشك فى قدرة ربه أبدا .

فقد صور القران الكريم هذا الموقف كالتالي :-

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) البقرة

وبهذا العرض القرآني نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يشك في قدرة الله على إحياء الموتى، فعندما قال له الله: أولم تؤمن يا إبراهيم ؟ فأجاب بلى ،وهى إجابة على الاستفهام المنفي ، والقصد منه بل أؤمن يا الله حق الإيمان ، ولكن فقط ليطمئن قلبه ، فكان السؤال عن هيئة الإحياء لا عن ذات الأحياء، وكأن سيدنا إبراهيم أراد أن يترقى في هذا المقام من علم اليقين إلى عين اليقين، بدليل قوله: (ولكن ليطمئن قلبي) أي ليزداد سكوناً بالمشاهدة المنضمة إلى اعتقاد القلب، لأن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب.

قال ابن القيم رحمه الله في (مدارج السالكين): "إن إبراهيم طلب الانتقال من الإيمان بالعلم بإحياء الله الموتى إلى رؤية تحقيقه عيانًا فطلب بعد حصول العلم الذهني؛ تحقيق الوجود الخارجي فإن ذلك أبلغ في طمأنينة القلب". فإبراهيم عليه السلام لم يشك يومًا في وجود ربه تعالى أو قدرته على إحياء الموتى وحاشاه أن يكون كذلك فهو الحليم الأواه المنيب؛ قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: {رب أزني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي}» (رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ). والمعنى كما قال القرطبي رحمه الله في تفسيره: "لو كان شاكًا لكنا نحن أحق به، ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم عليه السلام".. ولو كان في هذا خطأ لعاتبه الله تعالى كما عاتب آدم عليه السلام حين أكل من الشجرة، ولكن الله سبحانه أراد أن يُطمئن قلب خليله فأمره أن يحضر أربعة أنواع من الطيور ،وأمره سبحانه أن يقطع هذه الطيور إربًا إربًا ثم يخلطها مع بعضها، ويقسمها، ويجعل على كل جبل جزء منها. ثم بعد ذلك ينادي على كل طير باسمه يأتيه من فوره.. وتركب الخلق أمام إبراهيم عليه السلام لكل طير على حده كما خلقه الله على هيئته المعروفة لإبراهيم ولجميع خلقه ؛ ليرى بأم عينه هذه المعجزة الإلهية.. ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين.

وللعلم فهناك ثلاث مراتب هي: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. فعلم اليقين يكون بالسمع، وعين اليقين يكون بالبصر، وحق اليقين يكون بالحواس ،أو بالقلب.

قال ابن القيم رحمه الله: في كتابه (التبيان في أقسام القرآن): "المرتبة الثانية: عين اليقين... هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموت ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين. فكان سؤاله زيادة لنفسه وطمأنينة لقلبه، فيسكن القلب عند المعاينة، ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان. وعلى هذه المسافة أطلق النبي ﷺ لفظ الشك حيث قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» ومعاذ الله أن يكون هناك شك ولا من إبراهيم وإنما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، ومعاينة بعد سماع". ويستمر رحمه الله في تفسير هذه المرتبة ثم يقول: "وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاثة مثلا فقال: إذ قال لك من تجزم بصدقه: عندي عسل أريد أن أطعمك منه فصدقته كان ذلك علم يقين، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين، فإذا ذقته صار ذلك حق اليقين".. وبهذه المعجزة الإلهية ترقى إبراهيم عليه السلام من علم اليقين إلى عين اليقين كما ذكرنا واطمأن قلبه ورضي بالله ربه وكان أمة قانتًا لله حنيفًا، أبو الأنبياء وإمام المسلمين.

وبهذا كان اطمئنان القلب مرة أخرى دعامة المؤمن في مسيرة تكاليفه بهذا الكون